الوظائف التداولية للجملة الاعتراضية في الخطاب الأدبي

كاهنة دحمون

برزت منذ مطلع هذا القرن مناهج لسانية اختلفت منطلقاتها ومناهجها لوصف اللغة ومحاولة تفسيرها من زوايا مختلفة، منها المنهج الوظيفي الذي وجّه اهتمامه بوظائف اللغة وبأثر التفاعل التخاطبي في الموقف الذي يجري فيه استعمالها باعتبارها تلفظاً وانجازاً، ليستند بذلك على البعد التداولي، أي بالنظر إلى المقال والمقام، بما يحقق أهداف التعبير والتواصل والغايات المراد الوصول إليها. لذا سنهدف في هذا البحث إلى دراسة الوظائف التي تحملها الجملة الاعتراضية في بنيتها ودلالتها من وجهة نظر تداولية ذلك أن التركيب النحوي له دلالته ومقاصده في الاستخدام في مقام معين، بالنظر إلى الظروف المحيطة بالانجاز الكلامي أو ما يسمى أيضا بالوضع التخابري بين المتكلم والمخاطب في طبقة مقامية معينة لتلبية حاجات وأغراض.

ولا نجد وصفا للغة العربية من وجهة نظر تداولية، إلاّ ما قدّمه أحمد المتوكل في كتابه "الوظائف التداولية في اللغة العربية" مستعينا بنموذج "سيمون ديك S.Dijk"[•] في النحو الوظيفي كما تتبعناه. وهذه الوظائف التي سنقدمها هي:

1- المبتدأ Theme: وهو ما يحدد مجال الخطاب وموضوعه.

2- الذيل Tail: المكون الذي يحمل معلومة توضح معلومة داخل الجملة أو تعدلها.

3- المحور Topic: المكون الدال على ما يشكل المحدث عنه داخل الجملة (الحمل).

4- البؤرة Focus: هي المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو بروزا في الجملة يجهلها المخاطَب أو يشك في صحتها وينكرها[1].

وقد أضاف إليها المتوكل، وظيفة خامسة هي وظيفة:

5- المنادى Vocative: الدالة على المنادى في مقام معين.

ووظيفة كل من: المبتدأ والذيل والمنادى، وظائف تداولية تقع خارج الحمل، فهي وظائف خارجية. أمّا المحور والذيل، فهما وظيفتان تداوليتان تقعان داخل الحمل، وتعتبران جزءًا منه، فهما وظيفتان داخليتان. كما يقترح أن نميز داخل وظيفة "البؤرة" بين « بؤرة الجديد وبؤرة المقابلة من حيث نوعية البؤرة، وبين بؤرة المكان وبؤرة الجملة من حيث مجال التبئير.»[2].

وتتكون بنية النحو من جانب نظر النحو الوظيفي، على أساس ثلاث مستويات تمثيلية:

1 – مستوى لتمثيل الوظائف الدلالية: كوظيفة المنفذ والمتقبل والمستفيد والمستقبل والأداة والمكان والزمان.

2 – مستوى لتمثيل الوظائف التركيبية: كوظيفتي الفاعل والمفعول.

3 – مستوى لتمثيل الوظائف التداولية: كوظيفة المبتدأ ووظيفة المحور[3].

ويُقترح أن تشتق الجملة عن طريق بنيات ثلاث، هي: البنية الحملية والبنية المكونية أو التركيبية والبنية الوظيفية. وتتكون البنية الحملية بناءً على قاعدة "الأساس"[*]، التي تشمل كل من المعجم وقواعد تكوين المحمولات والحدود من "أطر حملية" وهي أصول ومشتقة (كالفعل) وحدود هي سائر الكلمات في الجملة ليتم تكوين "أطر حملية نووية" تشتمل على محمول وعدد معين من الحدود، وهذا حسب ما يقتضيه المحمول.

وتنقسم حدود المحمول بهذا إلى موضوعات ولواحق، أو إلى ما يمكن أن نسميه أيضا:

1) حدود – موضوعات.

2) حدود – لواحق.

ثم تقوم قواعد إدماج الحدود، بدمج الحدود في محلاّتها وفق قيود الانتقاء بالنسبة للحدود-الموضوعات - ليتم بذلك تكوين البنية الحملية النهائية للجملة، والتي تتضمن الوظائف الدلالية.

ويمكن أن نمثل لما سبق ذكره، بالجملة الاعتراضية ذات المحمول الفعلي التي وقعت بين الفعل وفاعله أو بين المحمول وموضوعه بغرض الدعاء، في قول التوحيدي في الإشارات الإلهية:« جفَّ – أنار الله صدرك - القلم وفَنِيَ القرطاس...»[4].

- أنار: محمول (فعل).
- الله: حد – موضوع (فاعل).
- صدر: حد – موضوع (مفعول).
- الكاف: للمخاطَب، وهي للتخصيص (أداة)، لاحق المحمول.

ويضع "ديك" حسب "المتوكل"، دائما، لإسناد الوظائف الثلاث – الدلالية والتركيبية والتداولية إلى موضوعات البنية الحملية – القيد الآتي « أن لا يسند لكل موضوع أكثر من وظائف ثلاث: وظيفة دلالية ووظيفة تركيبية ووظيفة تداولية»[5] أي أنّه لا يمكن أن يحمل مكون واحد أكثر من ثلاث وظائف. بمعنى أن يأخذ المكون من كل نوع من الوظائف السابقة وظيفة واحدة. إلاّ أنّه وفي المقابل، يمكن أن تسند وظيفة واحدة إلى أكثر من موضوع أو مكون واحد داخل نفس الحمل. مثال ذلك قول التوحيدي في مقام الدعاء: « أطلت – **أطال الله طولَك**- من غير طائل... »[6].

	أطال	الله	طول	ك
الوظيفة التركيبية	فعل	فاعل	مفعول	مضاف إليه
الوظيفة الدلالية	محمول	موضوع	موضوع	لاحق
	محمول	منفذ	مستقبل	مستفيد
الوظيفة التداولية		محور	محور	محور

نلاحظ من خلال هذا المثال، أنّ كل مكون أخذ من كل مستوى وظيفة واحدة وأسندت وظيفة المحور إلى أكثر من مكون واحد في نفس الجملة، وهذا في الجانب التداولي.

ويتم إبراز الوظائف التداولية، بإسناد الوظائف التركيبية أولاً، إذ ثمة «وظائف تداولية تسند بالدرجة الأولى إلى مكونات حاملة لوظائف تركيبية معينة»[7]. وهذا عن طريق إسناد الوظائف كأن تسند وظيفة المحور إلى المكون الذي يحمل الوظيفة التركيبية "فاعل"، والوظيفة الدلالية "منفذ".

ولتمثيل ذلك في الجملة الاعتراضية، كان لا بد من النظر إلى نسق الجملة من حيث بنيتها التركيبية إضافة إلى بنيتها الحملية، مع اعتبار المقام والسياق الخارجي الذي أنجزت فيه. وهذه أمثلة الجمل الاعتراضية التي تحمل في بنيتها وظائف داخلية ووظائف خارجية عنها، ووظائف في شكلها الخارجي.

يقول التوحيدي: « ...ومن كان يقول لمَ - **ولم محذوقة في مخاطبة الملوك**- ومن كان يقول كيف - **وكيف مرفوعة عن مواجهة الأرباب**- إنّما لما وكيف للعزيز إذا أدب به الذليل وللسيد إذا قوم به عبد.»[8]، وهي جملة اعتراضية مركبة. فأداتا الاستفهام "**لِمَ**" و "**كيف**" هما اللتان تأخذان الوظيفة التداولية الداخلية "**المحورTopic** "، لأنّهما المحدثان عنه داخل الجملة، أو داخل الحمل ولأنّها تمثل محط اهتمام المتكلم، لكي يبلغها إلى المخاطَب، في محمول غير فعلي.

يقول أيضا: « بيني وبينك أحوال - **اللسان لا يصنفها والعبارة لا تصرفها، والوصف لا يأتي عليها والإشارة لا تصل إليها، كل ذلك للطافة ورقة ونحافة ودقة** - من فضلك الذي أظَلَّتني غمامته.»[9] فاللسان والعبارة والوصف والإشارة، مكونات تقع داخل الحمل، تأخذ وظيفة دلالية هي وظيفة المنفذ، لذا فهي تحمل وظيفة تداولية هي: وظيفة المحور. وضميريا يمكن إسنادها أيضا إلى محدث عنه خارج الجملة، ناب عنه الضمير "هاء" وهي "الأحوال".

وما يأخذ وظيفة "المحور" في الجمل ذات المحمول الفعلي، مثال الجمل الاعتراضية « فأمّن الآن – **حاطك الله** - على دعائي، وقرّب أذنك من ندائي»[10] « فاستمع الآن – **يرحمك الله**- فقد حملت على نفسي لك اعترافا بفضلك وقضاءً لحقك...»[11]، وغيرها. ونمثّل بالأولى، فهذه الجملة تحمل الوظائف الثلاث في مستوياتها كما يلي:

	حاط	ك	الله
- المستوى التركيبي:	فعل	مفعول	فاعل
- المستوى الدلالي:	محمول	مستقبل	منفذ
- المستوى التداولي:		محور	محور

ونلاحظ بأنّ كل مكوّن، لا يحمل أكثر من ثلاث وظائف، إلاّ أنّ الوظيفة الواحدة يمكن أن تسند لأكثر من مكوّن أو موضوع واحد في الحمل نفسه، إذ أسندت وظيفة المحور لمكوّنات واقعة داخل الحمل، وليس خارجه، فهي مرتبطة بالمحمول، وكما أنّه وقبل أن تسند إلى المكون الوظيفة التداولية، كان يحمل قبل ذلك وظيفة تركيبية ووظيفة دلالية. ولقد أسندت وظيفة المحور للمكون الذي يحمل وظيفة الفاعل(المنفذ)، والمفعول (المستقبل والمستفيد). وأسندت أولا للفاعل لأنّه الأحق بها على غيره، كونه الأسبق من غيره في إسناد الوظائف. وإذا عدنا إليه من الناحية التركيبية في علاقة الإسناد في الجملة، فالمسند إليه هو الأحق بالمسند، ثم إنّ الموضوع الأوّل أحق بمحموله.

كما يمكن أن تأخذ هذه الوظيفة الجملة الإعتراضية برمتها كما في قـــول التوحيدي: « أيحسن بك – **بعد هذه اللطائف السابقة، وبعد هذه النعم السابغة، وبعد هذه الأيادي المتتابعة**- أن يطلع من سرك على سوء ظن به إيثار هوى عليه، أو على تقصير في خدمته...»[12] وفي: « قد تجشمت لك – **متبرعاً** -هذه النصائح فتجشم لنفسك -**متسرعا**- إلى القبول، فإنك بذلك أحظى مني...»[13]، «والناس رجال: فرجل – **مع أحكام إلفه وغوالب عادته**- لا يرعي على نفسه ولا يمكّنُ المواعظ من سمعه؛ ورجل وقف بين الأمور محاسبا، فطال حسابه وضاق جنَابه، فخلّط ورجّى وتمنى،

ورجل ادّكر واعتبر، فبكى واستعبر، وقال وحسَّر، ثم سكت وتحسَّر.»[14] وهذا لأنّها تعتبر المعلومات المعطاة المراد ايصالها إلى المخاطَب، والتي تظل ثابتة في الجملة المعترضة فيها، يقول أيضا: « يا هذا: إذا اعتراك الرَّيب في هذا المسموع، فاحتط لنفسك بالرجوع إلى قلب مسلّم من الهوى... وإن كنت قد كفيت الريب – **وإنّما ترنحك لعائقات عاداتك، وباقيات قرنائك الذين سحبوك على الضرّاء بالغرور، وقربوك بالأماني على الدهور** - فإنّ ذلك يمحي عنك بعزمة أواه، أو همة مُنيب، ووثبة صادقة، وكد يسير.»[15] فهذه الجملة فيها إيضاح وتوكيد على أنّ ما يحدث للمخاطَب، بسلوكه الطريق الخاطئ، إنّما راجع إلى ميوله إلى ملذات النّفس والدنيا ولفت الانتباه إلى هذا الأمر هو الذي جعل من الاعتراض محوراً، لعلّ المخاطَب يراجع نفسه فيهتدي، لأنّها موجّهة إليه بالخصوص.

تشكّل **البؤرة Focus** موضوعا من موضوعات المحمول فتأخذ بمقتضى ذلك وظيفة دلالية ووظيفة تركيبية. وكما رأينا سابقا، لإسناد الوظائف التداولية يتم أولاً إسناد الوظائف التركيبية، ولا يمكن أن يأخذ مكون واحد أكثر من ثلاث وظائف، إلاّ أنّه يمكن أن تسند وظيفة واحدة إلى أكثر من مكون واحد داخل نفس البنية الحملية، حسب النحو الوظيفي، وهذا بمقتضى شروط مقامية مرتبطة بالمعلومات التي يمتلكها المخاطَب حسب اعتقاد المتكلم، فتكون بذلك الجملة الاعتراضية التالية «أُعْلمك - **منحك الله السول ودَرْكَ المأمول**- أن الجمة المأخوذة علينا، المسوقة بالعقل والشرع إلينا: الوقوف على المقاصد بحقائقها من غير ريب يقدح، ولا شبهة تسنح.»[16]. تحمل مكون البؤرة وفق الوظائف الثلاث كما يلي:

	منح	ك	الله	السول	ودرك المأمول
- المستوى التركيبي	فعل	مفعول	فاعل	مفعول	مفعول
- المستوى الدلالي	محمول	مستقبل	منفذ	متقبل	متقبل
- المستوى التداولي		محور	محور	بؤرة	بؤرة

فالمكون "السول": يحمل وظيفة تداولية داخلية، تقع داخل الجملة، أي مرتبطة بالمحمول الذي تعدى إلى موضوع ثان، أخذ وظيفة تركيبية هي المفعول، ووظيفة دلالية هي المتقبل، أمّا الوظيفة التداولية فهي وظيفة البؤرة، لأنّها المعلومة الأكثر أهمية. وباعتبار المقام فهذه البؤرة هي «بؤرة الجديد» لأنّها معلومة غير معروفة لدى المخاطَب، فالمتكلم يعتبر أنّ المخاطَب يجهلها وأنّها معلومة غير مشتركة بينهما، فحين دعا له فهذا لاعتقاده بأنّ المخاطَب غير عارف بموضوع دعائه، لتشكل بذلك المعلومة المقصودة إبلاغها إيّاه .

ثمة مكونات لها الأسبقية في التبئير، تمثل معلومات يجهلها المخاطَب أثناء وضعه التخابري مع المتكلم، وهي « المكونات الحاملة للوظائف الدلالية "الحال" و"العلة" و"المكان" و"الزمان" و"المكونات المسورة" والمكونات الداخلة عليها "حتى".»[17]. وأمثلة ما يوضح ذلك في الجملة الاعتراضية ما يلي:

1- الظرف "**حينئذ**" في «فإذا بلغت هذا الحدّ، لم يبق بينك وبينك ضد ولا ندّ. فرد – **حينئذ** – بحره الطَّامي ظامئاً، ورُدْ روضة الناضر ناظرا، فإنك تذوق بغير مذوق ما لم يذُقْه مخلوق»[18] إذ له وظيفة دلالية هي الزمان، وقع كاعتراض مفرد، له وظيفة تداولية يحملها داخل البنية الحملية للجملة المعترضة، وهي "البؤرة"، كون المخاطب يجهل زمن الحدوث.

2- الحال "**متبرعا**" و "**متسرعا**" في «...فإني أوصيك – **متبرعا** - بما أرجو أن أكون به قاضيا لحق الصّفاء في المودة بيني وبينك.»[19]. وفي « قد تجشمت لك – **متبرعا**- هذه النصائح، فتشجم – **متسرعا** - إلى القبول، فإنّك بذلك أحظى مني.»[20] فهما يحملان وظيفة تداولية هي تبيان الحال التي واجه بها المتكلم مخاطَبه ليأتي بها والمخاطَب يجهلها في الوضع التخابري. كما أنّ المتكلم يعتقد ذلك، فيكون دورهما هو إبراز هذه المعلومة، فيحملان بذلك وظيفة « البؤرة».

3- وفي جملة «أطال الله أيّها الشيخ بقاءك – **ولا غبطة في البقاء** - وأدام صفاءك – **وكلّ العيش في الصفاء**- وأيَّدك في تناول الحق من معادنه...»[21] نجد جملة الاعتراض «**ولا غبطة في البقاء**» نجد مكوناتها تحمل الوظيفة كما يلي:

• **غبطة**: مكون مسور، له الأسبقية في التبئير، لذا يحمل وظيفة البؤرة.

• **في البقاء**: يحمل هذا المكون وظيفة دلالية هي المكان، ومن خلال التعريف السابق وبمقتضاه فإن الوظيفة التي يحملها هي «البؤرة». وغرض النّفي هنا، هو إقصاء معلومة وتعويضها بمعلومة جديدة.

والجملة الاعتراضية الثانية «**وكلّ العيش في الصفاء**» تحملها كما يلي:

• **العيش**: باعتبار أنّه من المكونات التي لها الأسبقية في التبئير، فهو مكون مسور لأنّه مخصص بالمسور (Quantité) "كل"، فإنه يحمل وظيفة تداولية هي "البؤرة".

• **في الصفاء**: يحمل وظيفة المكان دلاليا، ووظيفة البؤرة تداوليا.

وما نلاحظه هنا، هو أنّ كل مكونات هاتين الجملتين تحمل وظيفة البؤرة، أي أنّ كل الجملة تحمل وظيفة البؤرة، ما يستلزم تسميتها من حيث المجال بـــ:"بؤرة الجملة".

4- يوجّه التوحيدي كلامه لمخاطَبه، فيقول له: «بل حدثني عنك: هل حسبت أنّك رابح أو خاسر...وحبيب أو بغيض، وقريب أو بعيد، ومراد أو مريد؟... فإذا فرغت من ذلك – **وأنَّى لك بالفراغ**- فارشش ما فضل من الإحسان إليك، وأَنْعم علينا مما أنعم الله عليك.»[22] أنّى لك بالفراغ:

• **أنّى**: ظرف استفهام، يحمل وظيفة دلالية هي الزمان، يشتمل على مقام يجهل فيه المتكلم المعلومة التي يطلب من المخاطَب إعطاءه إياها، إذن فهو مرتبط بقاعدة الأسبقية والمقام الذي يشمله، فيأخذ بذلك وظيفة تداولية هي وظيفة "البؤرة". وبما أنّ المتكلم في حالة استخبار، إذن فهي: "بؤرة طلب".

5- وتحمل مكونات الجملة التالية «يا هذا:...ولا غنى إلاَّ من خزانة الله، ولا فوز بالجنّة إلاَّ بتفضل الله، ولا خلاص من نار الله إلاَّ برحمة الله. فاعلم علم هذه

الجملة، تنَلْ حقيقة التفصيل عند الله ودع- **قبل كل شيء وبعده** – الهوى عنك ولا تتخذه شريكا.»[23] وظيفة البؤرة في كلّ من:

• **قبل وبعد**: يحملان وظيفة تداولية هي "البؤرة"، لأنّهما يحملان وظيفة دلالية هي "الزمان" في مقام يجهل المخاطب هذه المعلومة وينكرها.

6- وعند مرتاض في روايته "مرايا متشظية"، نجد هذه الوظيفة في الجمل الاعتراضية الموجّهة لقبيلة بني خضران في قول المنادي: «... يقول لكم شيخكم النَّائم الهائم، وطّنوا أنفسكم على احتلاله. حتى ينتقل إلى النوم فيه. وتتخذوا أنتم في أرجائه مجالس تجلسونها... ولا تفعلون شيئا غير النوم الذي تنتظرون أن ترَوْا فيه الرُّؤى الصالحة التي تتيح لكم أن تستمطروا السماء ذهبا وفضة. بعد أن شحت عليكم بالغيث. **منذ الدهور الطويلة**.»[24]

• **منذ الدهور**: ظرف، يدل على الزمان في وظيفته الدلالية، يجهله المخاطَب في مقام يجعله يحمل وظيفة تداولية هي "البؤرة".

وهناك قيد يسند إلى الجملة التي تسند إليها «بؤرة المقابلة »، وهو « أن تكون الجملة مصدرة بأدوات مؤكدة من مثل: إنّ، إنّما، قد»[25]، كما يتبين لنا ذلك في الجمل الاعتراضية التالية:

- «وإن كنت قد كفيت الريب - **وإنّما ترنحك لعائقات عاداتك، وباقيات قرنائك الذين سحبوك على الضراء بالغرور، وقربوك على بالأماني على الدهور**- فإن ذلك يَمّحي عنك بعزمة أواه...»[26] ← فالاعتراض هنا يحمل وظيفة "بؤرة جملة" من حيث المجال، و"بؤرة مقابلة" من حيث النّوعية.

- «... ولهذا قال قائل منهم – **وقد أكثروا عنده ذكر الدنيا** -: أمّا أنا فإن تُقْبل الدنيا عليَّ لا آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تدبر عني، لا أبكي عليها بكاء الحَرِف المُهتَر.»[27]. ← بؤرة جملة – مقابلة.

فالجملة الأولى مصدّرة بـــ "إنّما" والجملة الثانية مصدّرة بأداة التحقيق "قد"، لذا فهما تعتبران جملتان اعتراضيتان، أسندت إليهما وظيفة "بؤرة المقابلة"، لأنّهما تحملان

المعلومة البارزة والأهم في الجملة المعترضة بين أجزائها، يتشكك فيها المخاطب وينكرها، فيأتي المتكلم ليصححها في هذا المقام، في جملة مُبأرة تنتمي من حيث المجال إلى "بؤرة الجملة"، ومن حيث النّوعية أو الطبيعة إلى "بؤرة المقابلة". واستعمال "إنّما" جاء للحصر، وهي تلميح بأنّ المخاطب كان متوانيا، فاستعملها التوحيدي للتلميح والتغيير عن قصده.

ونلاحظ، بأن وظيفة "بؤرة الجملة – المقابلة" أسندت إلى الجملة الاعتراضية برمتها. وهذه الوظيفة، كما نعلم، وظيفة داخلية تقع داخل الحمل. إلاّ أنّها هنا، شغلتها الجملة الاعتراضية التي هي مكون خارجي بالنسبة للجملة المعترضة، لتعتبر بذلك مرتبطة بها، ساهمت في إعطاء تحديدات إضافة لما يريده المتكلم. إذن فبإمكان وظيفة البؤرة أن يحتلها مكون خارجي عن البنية الحملية، باعتبار أن المخاطب ينكرها ويشك أو يجهل ورودها.

والفرق الذي يمكن أن نستخلصه بين بؤرة الجديد وبؤرة المقابلة، هو أن بؤرة الجديد الحاملة للمعلومة التي يجهلها المخاطب ترد في داخل التركيب في حد ذاته، فكما نجدها هنا كإحدى مكونات الجملة الاعتراضية، قد نجدها أيضا في بنية الجملة المعترض فيها، أو في جمل أخرى. أمّا بؤرة المقابلة فقد تأتي فيما يتخلل الجمل أثناء التلفظ بها كتعليق خاص من طرف المتكلم أو الراو أو السارد، وهنا في هذا المقطع وبالقوانين التي أسندت لها هذه الوظيفة، فلقد جاءت لتتخلل بين أجزاء الكلام لتحديد معلومة يجهلها المخاطب في المقام التخاطبي، وهذا لتحقيق التواصل من خلال التشكيل النّصي الذي يؤسسه متكلم لمخاطَب.

وكإسناد الوظائف التداولية فإسناد **وظيفة المنادى** **Fonction Vocative** مرتبط بالمقام، إلاّ أنه لا يملك وظيفة دلالية (منفذ أو متقبل...) ولا وظيفة تركيبية (فاعل ومفعول)، لأنّه مكون خارجي بالنسبة إلى البنية الحملية، لا علاقة له بالمحمول، فهو «لا يقوم بأيّ دور بالنسبة للواقعة التي يدل عليها محمول الجملة، ولا يسهم في تحديد الوجهة (perspective) التي ينطلق منها في تقديم هذه

الواقعة.» [28]. وهذا ما نجده عند النحويين بجعل "جملة النداء" جملة «لا محل لها من الإعراب»، وبوقوعها اعتراضا «جملة فاصلة وغريبة عن السياق».

وهناك قيدان أساسيان يضبطان إسناد "المنادى"، وهما: [29]

- يشترط في المكون المنادى أن يحيل على كائن حي، وليس على جماد.
- يستوجب أن يكون المنادى محيلاً على المخاطَب لا على المتكلم والغائب.

وهذا ما تدل عليه الجمل الاعتراضية التي تحمل المكون "المنادى"، من مثل:

- أيّها **العاكف** على الجهالة.
- يا **سيدي**.
- يا **هذا**.
- يا **أنت**.

فهذه الجمل تحتوي على الشرطين أو القيدين، وبالتالي فهي سليمة في استعمالها، تحمل مكون المنادى الذي يعتبر وظيفة تداولية، يحيل على كائن حي، وعلى مخاطب اتصل به المتكلم بمناداته إياه. وهي وظيفة تقع خارج حمل الجملة المعترض فيها، في مقام التخاطب. وهذا ما يؤيد وما يؤكد أنّ الجملة الاعتراضية مكون خارجي، بهذا فهو يحمل وظيفة خارجية في الخطاب. يشكل لنا بمفرده جملة ندائية قائمة بذاتها، لها دور في عملية التواصل، باعتبار ما هو مقصود بها وهو تنبيه المخاطَب بالدرجة الأولى وإشراكه في الكلام. كما أنّه لا تسند إليه لا الوظيفة التركيبية ولا الوظيفة الدلالية إلى المكون الذي يحمل وظيفة « المنادى» تداوليا، لأنّه لا يقوم بأيّ دور للواقعة التي يدل عليها المحمول ولا الوجهة الزمنية أو المكانية التي ينطلق منها تقديم هذا العمل. كما لايرتبط بأية وجهة نظر، سواء كانت رئيسية أو ثانوية لتصف الواقعة وترتبط بها. وما نسجله عن النداء هو أنّه وقع في غالبه في الجمل المعترض فيها تمهيدا لتحقيق التواصل مع الغير واستدراجه للمشاركة فيه، الذي ما كان أن يتم لولا إدراج الدعاء الذي وقع في غالبه جملا اعتراضية.

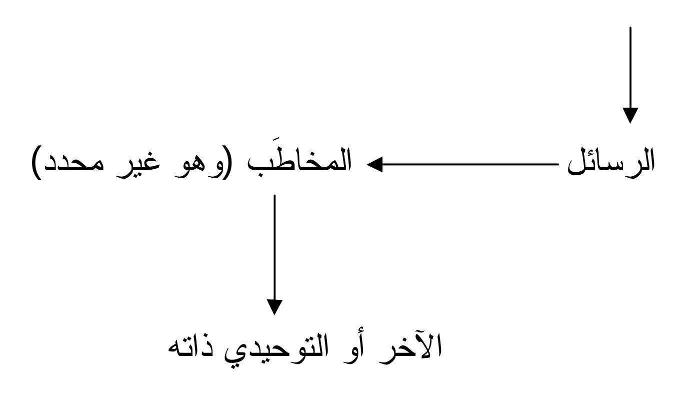
ومن بين المكونات الخارجية الأخرى، التي تقع خارج الحمل الاعتراضي، بالتالي سيكون مرتبطا بالحمل المعترض فيه، مكوّن «**المبتدأ Theme**» الذي يحمل وظيفة تداولية خارجية متميزة عن الوظائف التركيبية، لأنّ دور هذا المكوّن هو «تحديد مجال الخطاب». فمن مقومات نجاح عملية التواصل، أن يتفق المتكلم والمخاطَب على مجال التخاطب، وأن يتعرف المخاطَب على ما سيتحدث عنه قبل أن يحادث. لذا فهو ليس من موضوعات المحمول ولا لاحقا من لواحقه، فيكون بذلك تركيب الجملة تداوليا على النحو التالي:

مبتدأ + محمول + حدود (موضوعات ولواحق).

كما أنه لا يأخذ وظائف تركيبية ودلالية، كما تأخذها المكونات الداخلية من محور وبؤرة. أي أنّ المبتدأ سيكون خارج الحمل الذي يحمل الوظائف الداخلية: المبتدأ + الحمل. فالحمل سيكون واردا بالنسبة للمبتدأ، كأن نقول: زيد، أبوه قادم. فالجملة أو الحمل "أبوه قادم" وارد بالنسبة لزيد، ليكون للأب علاقة بالابن يحددها الضمير. فرغم أنّه مكوّن خارجي إلاّ أنّه مرتبط بالجملة التي تليه، بواسطة ضمير يدل عليه. ويحتل الصدارة على اعتبار أنّ عملية إنتاج الخطاب تتم عادة في مرحلتين:

- تحديد مجال الخطاب، بفهم الموضوع.
- التلفظ بالجملة أو الجمل التي تحمل فحوى الخطاب، واستخدام شتى وسائل التبليغ.

ويمكن التمثيل لذلك في الإشارات بالمخطط التالي:



وتحديد مكون المبتدأ، لا يمكن أن يتم إلاّ انطلاقا من الوضع التخابري القائم بين المتكلم والمخاطَب في طبقة مقامية معينة. كما يعتمد أيضا في ذلك معيارا تداوليا، هو «إحالية المبتدأ» [(30)]. الذي يعتمد على قدرة المخاطَب، في التعرف على ما تحيل عليه العبارة ويهتدي إليها، باعتبار المعرفة المشتركة بينه وبين المتكلم « فنفس العبارة تكون كافية إحاليا في وضع تخابري، وتكون غير كافية إحاليا في وضع تخابري آخر»[(31)]. فإذا لم يستطع المخاطَب أن يهتدي إلى الشيء المقصود والمعين وبقي مجهولا بالنسبة إليه، فالمكون المحال إليه غير صالح لأن يحمل وظيفة المبتدأ.

وباعتبار أنّ الجملة الاعتراضية، مكون خارجي بالنسبة للجملة المعترض فيها فإنّ وظيفة المبتدأ ستكون خارج البنية الحملية للجملة الاعتراضية التي تحمل ضميرا محيلا، به يهتدي المخاطَب إلى المبتدأ الذي يشترط فيه أن يكون واضحا في المعرفة المشتركة أو الوضع التخاطبي، أي يكون معينا. وهذا ما نجده في الجمل الاعتراضية التي تحمل ضميرا محيلا. كما في «ومع ضرب الأمثال وتصريف الأقوال، بيني وبينك أحوالٌ - **اللّسان لا يصنفها والعبارة لا تصرفها، والوصف لا يأتي عليها والإشارة لا تصلُ إليها؛ وكلٌّ ذلك للطافة ورقة ونحافة ودقة** - من فضلك الذي أظَّلتني غمامته ومطرت عليَّ سحابته..."[(32)] فالهاء هنا تحيل على الأحوال المشتركة بين المتخاطبين، ليحتل بذلك هذا المكون وظيفة خارجية بالنسبة للجملة الاعتراضية وهي وظيفة المبتدأ، فهو ليس موضوعا من موضوعات المحمول ومستقل عنه ولا يطابقه كما أنّه لا يمثل لا وجهة نظر أولى ولا ثانية.

ومنها أيضا، نجد ما يحيل إلى مجال الخطاب، وهو «الغريب، أي الرجل الذي لحقت به الغربة»، والذي وُصف في الجملة الاعتراضية التالية «هذا وصف رجل لحقته الغربة فتمنى أهلا يأنَسُ بهم... واشتملت عليه الأشجان من كل حاضر وغائب وتحكمت فيه الأيام من كل جاء وذاهب ... وشنته الزمان والمكان بين كل ثقة ورائب **- وفي الجملة: أتت عليه أحكام المصائب والنوائب، وحطته بأيدي العواتب عن**

المراتب- فوصف يحفى دونه القلم...»[33] وهو وصف، دائما، على حد قول «التوحيدي» يفنى من وراءه القرطاس.

ونجد جملا أخرى تحمل عنصر الإحالة إلى المبتدأ، في «**وقد أكثروا عنده ذكر الدنيا**» وفي « **وهو روح الله**»، وفي مواقع الدعاء في الرواية منها «... ومن مات منكم أو اغتاله أحد أو ذبحه أحد فعلى أهله أن يدفعوا عنه ضريبةً أطلق الشيخ الأبر **حفظه الله ورعاه وأكرم مثواه** عليها ضريبة القبر في رواية. وضريبة عذاب القبر في رواية أخرى...»[34]، وفي جملة «... ولمَ اختفى عنك قصر عالية بنت منصور... يبدو أنّك بالأمر المقدّر قطعت مسافات شاسعة. **منذ غادرت قصرها.**"[35]، فهذه الجمل مرتبطة بمجال الخطاب، وتضمنت معاني تحيل إليه يوضحها الاستعمال، والهدف منها هو **توسيع الخطاب** وأن يظل **الموضوع هو الغرض** في الكلام لتدخل بذلك الجملة الاعتراضية فيه ولا تقطعه إلى موضوع آخر خارجه بل هي منسجمة دلاليا مع الموضوع الرئيسي وعلى علاقة سببية معه:

موضوع ——سبب——◄ اعتراض ——سبب——◄ تابع للموضوع

كما يمكن أن تكون تمهيدا لموضوع آخر هو نتيجة للأوّل وهذا في الجمل الاعتراضية التي وردت أشباه جمل، فهي تحيلنا إلى السياق الخارجي الذي حدث فيه القول. لذلك فالاعتراض باعتباره موجّها للمخاطب هو غاية من الغايات التي استعملها وأدرجها التوحيدي لتحقيق التواصل وإبلاغ رسالته الدينية ضمن موضوع التصوف سواء في جمل اسمية أو فعلية مستقلة بذاتها أو في أشباه جمل مرتبطة بغيرها.

تعتبر وظيفة "**الذيل Tail**" في إطار النحو الوظيفي، وظيفة تداولية خارجية. وهو مكون يختلف عن المكون المزحلق إلى اليمين، والذي يأخذ وظيفة تداولية خارجية وهي المبتدأ. فهو مزحلق إلى اليسار ليأخذ، في نظر النحاة العرب، تركيبيا، وظيفة المبتدأ المؤخر. إلاّ أنّ المتوكل وعلى اختلاف الخصائص التي قد يأتي عليها (مبتدأ مؤخر، بدل)، يعطيها وظيفة تداولية واحدة وهي "الذيل". وهذا على مستوى بنية الجملة، أثناء العملية التخاطبية والإخبارية، التي ترتبط بالمتخاطبين في مقام معين.

والذيل وظيفة تحمل «المعلومة التي توضح معلومة داخل الجملة أو تعدلها أو تصححها»[36].

ونلاحظ أن استعمال هذه الوظيفة في رواية "مرايا متشظية" لعبد الملك مرتاض مهيمناً، قصد بلوغ مرام، وهذا ما سنوضحه في الجدول التالي:

الاعتراض التذييلي	نوعه	وظيفته	الصفحة
...والتي يقال إنها جاءت من وراء السبعة بحور.	تصحيح	شرح وتوضيح	13
...عالية بنت منصور	توضيح	إزالة الابهام، والتأكيد على محور الحديث.	19
وهل وجدتم لهذا القصر نظيرا في القصور؟...قصر عالية بنت منصور.	تصحيح وتعديل	إخبار عن صاحب القصر المحدث عنه لتعديل المعلومة.	21
القصر... القصر يا بني خضران.	توضيح	القصر هو المعلومة المراد توضيحها.	24
صاحبة السبعة قصور	توضيح	يضيف معلومة أخرى، حول التعريف بعالية بنت منصور.	34
والله أعلم بشكله وهويته	توضيح	لإزالة الإبهام	37
اغتاله الوحش ذو سبعة رؤوس.	توضيح وتذكير	لتأكيد المعلومة وإزالة الإبهام.	41
هكذا كانت الأخبار تتناقل بين الأطفال.	توضيح	إزالة إبهام وإخبار بمصدر المعلومة.	44

أججوها، النار يا بني حمران...	توضيح	إزالة الابهام وضبط المعلومة المقصودة إيصالها.	45
عالية بنت منصور.	توضيح	التوضيح والتأكيد على محور الحديث.	50
الوحش ذو سبعة رؤوس، يهبط من الغابة كل ليلة فيغتال، هكذا يقال.	تعديل وتصحيح	إزالة الابهام، وإعطاء معلومة جديدة محل إخبار سابق.	74
نحن الضياع... والظلام الذي يسمينا الظلام.	تعديل	إضافة معلومة أخرى، لتعديل وتوضيح معلومة أعطيت سابقا.	76
إلى يومنا هذا	توضيح	تحديد الزمان .	80
كما كانت قالت عالية بنت منصور لأبي الشيوخ السبعة قبل أن يتوفاه الله. بعد أن أتيح له أن يراها في المنام.	توضيح وتصحيح	لإزالة الابهام عن صاحب القول.	84
ما أشقاك يا شيخ بني بيضان	توضيح	توضيح حالة	142
أنتم الذين سماكم الظلام، الظلام، يا بني خضران	التعديل	وهذا لتخصيص المخاطب أكثر، وليثبت المعلومة المقصودة ايرادها.	162
ما أروعكم يا بني خضران حين سماكم الظلام الظلام.	توضيح	توضيح لإزالة الابهام.	163

والله فعال لما يريد.	توضيح وتعديل	إزالة الابهام والتحقيق.	231

ومن خلال التعريف السابق الذكر للذيل، نلاحظ أن هذا المكون قد طغى على الرواية لأنّه يأتي بعد معلومة سبقته يعطيها الراوي ثم يريد تصحيحها أو تعديلها أو توضيحها قصد التدقيق أكثر. أي أنّه يقع في آخّر الجملة وخارجها لاستكمال الدلالة في مواطن جامعة ومواقف حافلة، لأنّها «تجمع بين متلقين ذوي عقليات متفاوتة، منهم البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة والجيد الخاطر، وذلك يستدعي استكمال الدلالة وتمامها»(37) فبعد تمام المعلومة الأولى في الجملة، يأتي الذيل كمعلومة تأخذ أحد الأدوار السابقة. بتعبير آخر، الذيل يقع بعد ذكر المعلومة المقصود التدقيق فيها. ومثل المبتدأ، فهو مرتبط بالحمل بواسطة ضمير «يحاوله»(38)، وبواسطة روابط بنيوية أخرى تأتي بحسب البنيات المذيلة وهو ضروري في الذيل أكثر منه في المبتدأ.

وتبدو "الإشارات الإلهية" للتوحيدي نصا واحدا متماسكا مكوناً من عدة نصوص على الرغم من أنها جاءت في رسائل متفرقة بفقرات متناثرة، إلا أنها جميعا تشكلت ضمن موضوع التصوف. والنص الاعتراضي نجده الميزة المشتركة بينها، كونه حاضرا في جميع الرسائل، فأبو حيان التوحيدي لم يستغن عنها حينما يوجّه خطابه للمتلقي، قصد إشراكه في كلامه وتوكيده على حضوره، لأغراض عدة. وبوجود المخاطب في رسائله، استطاع أن يحدث نوعا من الربط بينها وعلاقة مع الآخر وتكوين الوحدة الدلالية لها، فيربط بينها في توجيهها إلى نفس المخاطب الذي يريد سلوك طريق التصوف بالتعرف على بعض الأمور، فيكون المحور في النص الاعتراضي في الإشارات هو المخاطَب.

أمّا في رواية "مرايا متشظية" لعبد الملك مرتاض، فإنّ من عوامل تماسك النص هو وحدة الموضوع ووحدة الحدث. والحدث هو مضمون النص، أي ما يرويه عبد الملك مرتاض عن الشيخ الأغر الأبر وعلاقته بعالية بنت منصور وأهالي الربى

السبع، الذين تضمّنهم النص الاعتراضي بالإحالة للحديث عنهم في قطع فيه شرح ووصف وتعليق ما يرويه، وهذا ما يسميه بارت بـــ"**التكسير التركيبي**" [39] في السرد، بين المقاطع السردية القائم على مبدأ الاتصال والانفصال ويشكل معلومات على محور النص المقطوع الذي جاءت فيه (وكما رأينا فالمحور وظيفة تداولية تسند إلى العنصر الدال على ما يشكل محطّ الحديث) باعتبارها شخصيات تدور حولها أحداث الرواية.

ويمثل الاعتراض فيها، باعتباره بنية نصية مستقلة، والتي ترد شرحا وتعليقا ووصفا ميتانصا صريحا. وتأتي على شكل حكايا مضمنة في الرواية. تشكل وجهة نظر الكاتب، وهي ذات بعد حكائي سردي. وهي تمهيد لواقعة وحكاية. ليتفاعل مع النص يقول سعيد يقطين: «الميتانص يتفاعل مع النص من خلال موقفه منه وانتقاده إياه وعبر هذا التفاعل يكون النص، وهو ينتج ذاته ينتج نقيضه أيضا.»[40]. فالرواية تعيد نفسها وتصبح استشهادا للزمن والوقائع التي تشبهها. وهو قريب من المناصة Paratextualite، إذ تأتي مجاورة للنص الأصلي كشاهد تربط بينهما نقطتا التفسير، أو شغلهما لفضاء واحد في الصفحة عن طريق التجاوز، كأن تنتهي بنية النص الأصل بنقطة ويكون الرجوع إلى السطر، لنجد أنفسنا أمام بنية نصية جديدة لا علاقة لها بالأولى إلا من خلال البحث والتأمل[41]. وتأتي خاصة في ذيل الكلام. وعادة ما يأتي الشرح والتعليق بعد النص المراد تفسيره، إلا أن عبد الملك مرتاض يعكس هذه العملية، في قوله:

«... لم يخبر بذلك إلا عقلاء القبيلة وشيوخها وعلمائها قبل زمن الاغتيال...فكان يخرج كل ليلة إلى جذع الشجرة التي كان انطلق منها بعيره إلى عين وبار وينتظر هناك طويلا لعل ذلك البعير العجيب أن يعود إليه فيذهب به إلى تلك العين المباركة... لكن البعير لم يعد إليه قط...

« قال الليث: وبار، أرض كانت من محال عاد بين رمال يبرين واليمن. فلما هلكت عاد أورث الله ديارهم الجن فلم يبق بها أحد من الناس... وكانت أرض وبار أكثر الأرضين خيرا، وأخصبها ضياعا، وأكثرها مياها وشجرا وتمرا. فكثرت بها

القبائل حتى شحنت بها أرضهم. وعظمت أموالهم. فأشروا وبطروا وطغوا. وكانوا قوما جبابرة ذوي أجسام فلم يعرفوا حق نعم الله تعالى. فبدل الله خلقهم. وجعلهم نسناسا للرجل والمرأة منهم نصف رأس، ونصف وجه، وعين واحدة، ويد واحدة، ورجل واحدة. فخرجوا على وجوههم يهيمون في تلك الغياض إلى شاطئ البحر يرعون كما ترعى البهائم. وصار في أرضهم كل نملة كالكلب العظيم. تستلب الواحدة منها الفارس عن فرسه فتمزقه. ويقال: إن ذي القرنين وجنوده دخلوا إلى هذه الأرض فاختلس النمل جماعة من أصحابه...

وفي كتاب أخبار العرب أن رجلا من أهل اليمن رأى إبله ذات يوم فحلا كأنه كوكب بياضا وحسنا فأقره فيها حتى ضربها. فلما ألقحها ذهب ولم يره. حتى كان في العام المقبل فإنه جاء وقد نتج الرجل إبله وتحركت أولاده فيها. فلم يزل فيها حتى ألحقها. ثم انصرف. وفعل ذلك ثلاث سنين. فلما كان في الثالثة وأراد الانصراف هدر فأتبعه سائر ولده. ومضى. فتبعه الرجل حتى وصل إلى وبار. وصار إلى عين عظيمة. وصادف حولها إبلا حوشية وحميرا وبقرا وضباء وغير ذلك من الحيوانات التي لا تحصى كثرة. وبعضه آنس ببعض. ورأى نخلا كثيرة حاملا وغبر حامل. والتمر ملقى حول النخل قديما وحديثا بعضه على بعض. ولم ير أحدا.

فبينما هو واقف يفكر إذ أتاه رجل من الجن فقال له: ما وقوفك هاهنا؟ فقص عليه قصة الإبل. فقال: لو كنت فعلت ذلك على معرفة لقتلتك، ولكن اذهب وإياك المعاودة فإن هذا جمل من إبلنا عمد إلى أولاده فجاء بها. ثم أعطاه جملا وقال له: انج بنفسك. وهذا الجمل لك. فيقال: إن النجائب المهرية من نسل ذلك الجمل.

ثم جاء الرجل وحدث بعض ملوك كندة بذلك. فسار يطلب الموضع فأقام مدة فلم يقدر عليه. وكانت العين عين وبار.»[42].

فهذه القصة هي تعليق وشرح على ما ورد لدى الرواة ونقلة الأخبار، بأنّ ما لشيخ بني خضران من معارف وحكم والتي لا يضاهيها فيه أحد، والتي كان قد تعلم فيها كل علم في سبع ليال وأن الفتح الذي أصابه بزواجه من الصبية الحسناء، يعود

الفضل في ذلك إلى الجن التي علمته في عين وبار العجيبة، حين دفع إليها في أحد الليالي المظلمة، وقد ركب بعيره الذي كان في حقيقته بعيرا عجائبيا- كما ورد في الرواية-، وأن قصته تشبه ما ورد في معجم البلدان. إذ قام الكاتب بقطع السرد بقصد التعريف بهذا المكان الذي لا يعرفه القارئ، فجاء به كمعلومة جديدة لما سبق إخباره وتصحيحا له «... فمنهم من ذهب إلى أنها أزلية يعود عهدها إلى عصر الدينصور الأول. ومنهم من ذهب إلى أنها هي العين الحمئة التي كان بلغها ذو القرنين ووجد عندها قوما...»[43]، لإزالة بعض الغموض والشك حيث أنه يعتبر أنقاض مدينة عاد التي أورثها الله للجن. وكتمهيد لما سيتم الإخبار عنه، من أعاجيب سببها عين وبار كفرض فترة الاستيقاظ في الليل والنوم في النهار، بسبب أن الزوجة الجنية لو رأت الشمس سوف تطير حالا إلى أهلها ببلاد الجن ولسهولة التعامل بين الروابي عند ممارسة الاغتيالات. والتي يبقى سر الوصول إليها (إلى العين) غامضا، ليحمل بذلك بعدا عجائبيا وأسطوريا.

وفي ذيل الكلام عن شيخ بني خضران، وأعاجيب زوجته. يمهد الراوي للحديث عن أهل الربوة البيضاء، لينتقل بذلك إلى موضوع آخر « الشيخ الأغر الأبر شيخ بني خضران. صاحب الهمة والشأن. في جميع الأزمان. يريد بنو بيضان أن يساووا بينه وبين شيخهم الجاهل الخامل العاجز وهم لا يستحون؟...»[44].

ونفس القطعة نجدها مكررة في الرواية لكن هذه المرة في مقام آخر وعلى لسان الراوي[45] في الحديث عن انتشار الاغتيالات كثقافة والتي نسبت إلى الجني جرجريس والتعليق على ذلك «...ويحكى أن رجلا من أهل اليمن رأى في إبله... وكانت العين عين وبار...» وجاء في الأخبار الموثوقة تعليقا على هذا الخبر الذي صح عند جميع الشيوخ. إلا شيخ بني زرقان أن الجن ليست هي التي تغتال الناس في الروابي السبع. لأن سلوك هذا الجان مع الرجل الذي دفع إلى عين وبار كان سلوكا عادلا... فهذه الحكاية العجيبة تثبت براءة الجن من الاغتيال. وتثبت التهمة على رجال من شرار الناس... [46].

كما قد يأتي الميتانص على شكل موقف أو كلام يتخلل السرد. ليبين وجهات أو زوايا نظر وآراء الكاتب، على لسان الراوي أو أحد من شخصياته، تشكل موقفا في بدائل دلالية عما ذكر من أحداث. فالرّاوي يعلّق في ذيل الكلام عن أعمال أهالي الربوة الخضراء، التي فسر بها تلقبهم بالظلام « ولأنّ الظّلام يلفّكم بردائه الصّفيق؛ ولأنّه يسمّيكم الظّلام... فأنتم الظّلام والنّور الذي يسميكم الظّلام. وتسمّون أنتم النّور الظّلام... لا تحبّون إلاّ النّوم اللّذيذ. الكسل أحلى ألف مرّة من العمل...

- نحن نعمل؟ نحن نتعب، ونكدّ؟ أي منكر؟ العياذ بالله من العمل. ولا بارك الله إلاّ في الكسل... نحن نحب الرّبح الكثير، بالعمل القليل. والله على كل شيءٍ قدير...

ولعلّ من أجل كل ذلك يسميكم الظّلام، الظّلام...» [47].

وتقطعه أيضا عالية بنت منصور، لسرد حكايتها والتعريف بنفسها، أو ما يسمى بالسرد الاستذكاري، في «...فأنا خالدة الشباب، أبدية الفتاء. بفضل شربي من عين الحياة...كنت يومئذ بجبل قاف. أتجول وأتمتع بجمال الكائنات النورانية. والتي تقع عليها عيناي.» [48]. وتقطع وصفها وحالتها بتوجيه الكلام إلى مخاطبها، تقول:

«وحانت منِّي التفاتة. فرأيت نهرا آخر. فاشتهيت أن أشرب منه. فأنزلني الطَّائر المركوب. فشربت من عسله المصفى...إلى أن حانت منِّي نظرة إلى نهر بديع. له خرير كالغناء الجميل. أنزلني الطائر. فشربت من خمره اللذيذ حتَّى رويت... اشتهيت البقاء هناك على ضفاف ذلك النَّهر النَّورانيّ العظيم. أتمتَّع بجمال تلك الكائنات. وأسبح الله وأقدّسه...

وما كان أسعدني بذلك. يا شيخ بني بيضان...

وبينما أنا كذلك إذ أحسسْت بكائن غريب... كان كائنا عملاقا. مكتنزاً. كأنه جسم مصنوع من قضبان الفولاذ... بدأ يحدِّق إليّ ببصره. ويحدّق...» [49]. لتواصل حكايتها مع ظهور جرجريس ووصف غرابته:

«لم يمهلني جرجريس حتى أفكر...احتملني... حلق بي في أعالي الفضاء السحيقة. في سرعة مذهلة. جعلتني أفقد وعيي في بعض الأطوار. إلى أن كان من أمري ما كان...

وجرجريس بعد كائن طيار سباح...

كان كمَنَ لي لعنه الله في بعض الرّياض... طار بي في أعالي السّماء... ثم غاص بي في أعماق الأرض. وهناك وضعني في قصر بديع عجيب...»[50]. ونجدها أيضا تتدخل لتكسر بنية الحدث بالشرح والتعليق على شيخ بني بيضان، لتكون جنبا لجنب مع الراوي، لشرح علاقته بالصبية النورانية في:

«... وأنت لا تفتأ تحاول وتحاول. بعد أن استرجعت نفَسَك قليلاً. تحاول الإمساك بشعرها لتبدّده عن جسدها... لولا وصول عالية بنت منصور في هذه اللحظة الهائلة. كانت كأنَّها أحسَّت بما كنت تريد فعلَه من الأفعال الآثمة. في قصرها فجاءت ليقع ما يقع. ويضيع منك ما يضيع. وربما إلى الأبد... ما أشقاك يا شيخ بني بيضان...

...« **وغريب أمر هذا الرجل العاق. أبرأته من الكَمَه والبَرَص والعَرَج. أعدت له نضارة الشّباب. أمّنتُه على صبيتي. آثرته بها لتطوف به في أرجاء قصري. آثرته بها إكراماً لتقاليد الضِّيافة. وتقديرا لمكانته في قبيلته. في ربته. كان ممكنا أن أكلِّف أحد غلماني الأشدَّاء بالتّجوال به. خفت أن يؤوّل ذلك تأويلاً سيّئا. يُشيع عنِّي بين شيوخ القبائل حين يعود إلى ربوته إن عاد أنّ عالية لم تُكرم ضيافته. لم تُحسن استقباله. لم تحتفِ بمقدمه كما يجب أن يُحتفَى بمقدم الكرام العظام. بعد كلّ ذلك يتحول هذا الشّيخ الضّال إلى فحل شرس شبق. يراود صبيّتي عن نفسها ليفسدها عليّ. أو ليُحبْلها فيُسبّب لي مشكلة لا حلّ لها لديّ...»**[51]. وفي «**لولا أنّي وصلت في الوقت المناسب...وإلا لكانت الصبية حبلت من شيخ بني بيضان. فيكون ولدها مختلط الدم. دم مدنس ودم نوراني... وكيف يمكن أن يضاجع فان خالدة وخالدة فان؟»**[52]. وهذا لأن العلاقة بينهما، ليتم التواصل، غير متكافئة، لهذا فهو مستحيل.

وهذه المقاطع الاستذكارية هي تقرير وتوضيح لأحداث مضت، فيها معلومات وافية تسد ثغرات الغموض التي يمكن أن يحس بها القارئ، حتى يتمكن من فهم موقعها بالنسبة للحدث الأساسي وهو امتلاك عالية بنت منصور والتناحر القائم بين الروابي السبع، وفي محاولة لدمجه في مسار الحكاية.

وهذه الميتانصات، التي لا تأخذ دلالتها خارج السياق الذي وردت فيه، إنما جاءت لتحقيق الأبعاد التالية:

- **المماثلة:** أو التشبيه وهذا ما نلاحظه في المثال الأول. فما روي عن الشيخ الأغر الأبر تشبه قصة الأعرابي في القصة التي وردت على لسان الليث، وما حدث للهدهاد.

- **المعارضة:** وهذا بنقد ما قيل في القصة ومعارضتها في قبيلة بني زرقان. والإعلان عن اللاتواصل الإنساني في تدخلات عالية بنت منصور، بمحاولة تقليد أساليب القص الخرافي والشعبي.

- **التجاوز**: بالبحث عن الجمالية، بتعميق الدلالة، باستخدام التشبيه، التي يتم فيها حضور الكاتب إلى جانب الراوي. والإيجاز أو الاختصار، في «والريح والدماء والظلام...»(53) الذي هو تضمين لأبعاد رمزية.

وعند وقوعنا على الاعتراض في المدونة، نلاحظ أن الكاتبين يستعملان نصوصا مكتوبة قد قيلت من قبل وأعدت ووضعت لمقامات مختلفة، ولها معان موجودة سلفا ومشحونة بدلالات مسبقا. ومن أجل نجاح عملية التواصل، فإنه لا بد من قسط مشترك من التقاليد اللغوية والأدبية بين المتخاطبين(54)، يختاران منها ما يمكن دمجه في بنية الخطاب والدلالة التي تتوزع على مساحته، وما هو موافق للمقاصد والأهداف المراد ابلاغها. فبالانتقال من النص إلى الميتانص فالتناص، فإننا ننتقل من استعمال لآخر ومن زمن لآخر ومن دلالة لأخرى.

إذ يخرج معنى الجملة الاعتراضية إلى دلالات كثيرة، يقتضيها المقام الذي استعملت فيه، كما نلاحظ ذلك في الأغراض والمقاصد التي جاءت فيها، وفي

استخدامها في عدة أنظمة، التي تكون دالة على الإخبار أو الإنشاء في معانيها المختلفة. وفي اللغة العربية نجد أن الجمل المستخدمة كاعتراض أثناء التواصل هي **جمل محفوظة أي تناصات،** لها من المزايا ما يجعلها تستعمل في نفس المواقف تقريبا تحمل دلالات متداولة في الاستعمال. أي أنها مرتبطة بالمتكلم والمقاصد من قوله وما يتوقع من آثاره على المخاطب «إن من المقال ما يتصف بصفات معينة... تجعله صالحا للاستحضار في المقامات التي تشبه مقامه الأصلي الذي قيل فيه، فيصبح المقال القديم جزءا من المقام الجديد فيدخل في تحليل هذا المقام الجديد.» [55]. إذ يمكن لكلام متداول قيل في مناسبة ما أن يؤثر في مقام جديد.

ومنها الجمل الاعتراضية التي غرضها الدعاء، فهي تجري على الألسن في مواقف يريد فيها المتكلم الخير أو إبعاد الشر عن المخاطب والتعزية أو إلى ما باعثه ارتياح أو اكتراث. ولكل مقصد وغرض تسميته عند العرب، يقول القرطاجني: «أنّ الأقاويل... لما كان القصد بها استجلاب المنافع واستدفاع المضار ببسطها النفوس إلى ما يراد من ذلك وقبضها عما يراد بما يخيل لها فيه من خير أوشر، وكانت الأشياء التي يرى أنّها خيرات أو شرور منها ما حصل ومنها ما لم يحصل، وكان حصول ما من شأنه أن يُهرب عنه يسمى أداة أو رزءا، وكفايته في مظنّة الحصول يسمى نجاة: سمي القول في الظفر والنجاة تهنئة، وسمي القول بالإخفاق إن قصد استدعاء الجلد على ذلك تعزية، و إن قصد استدعاء الجزع من ذلك سمي تفجيعا...» [56].

ونجد من أمثلة العبارات الشهيرة المتداولة التي جاءت كاعتراض في ذيل الكلام مثل عبارة "صلوا على النبي المختار"، «اسمعوا يا "حضَّار"؛ يا أصحاب الحلقة الأبرار؛ اسمعوا ما سأحكيه لكم من عجائب الأخبار... منذ غابر الأعصار؛ **اسمعوا وعوا، وصلُّوا على النبي المختار (ص)...»**[57] التي تذكر عند بدء الكلام أو عند سرد حكاية والدعوة للسماع، كما هو متمثل في الرواية أو الرجاء. أو التي تقال أيضا في مقامات أخرى، كأن تقال لمن[58]:

- يأخذه الغضب منه مآخذه، فيكون المعنى المراد: اهدأ.

- يريدون استوقافه عن الكلام، فيكون المعنى المراد: كف عن الكلام.

- في مخاطبة من يتسرع في القول أو الفعل، فيكون المعنى: تمهل.

- لمن يستكثر الأشياء أو الخير أو المال أو النعمة عند الناس، فيكون المعنى: لا تحسد على الناس.

- لمن يقع في أعراض الناس أو ينال منهم، فيكون المعنى: لا تقع في أعراض الناس.

- لمن يخاطب الناس بشيء من الجفوة، فيكون المعنى: تلطف.

- لمن يستضعف نفسه أو يتردد عن أداء فعل ما، فيكون المعنى: لا تخف أو لا تتردد.

وأيضا نجد قبلها، العبارة الشهيرة المتداولة منذ الجاهلية «**اسمعوا وعوا**» التي وردت في خطبة قس بن ساعدة المسجوعة في سوق عكاظ يجمع الناس بأعلى صوته لينذرهم ويوقظهم « أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلٌّ ما هو آت آت». والتي استعملها أيضا الحجاج بن يوسف الثقفي في قولـــه: «أيها الناس اسمعوا وعوا إني أرى فيكم رؤوسا قد أينعت وحان وقت قطافها» عند ولايته على العراق.

فكما نلاحظ، فبالإمكان أن نوافق بين كلام متداول بين الناس وضع لمقام معين وبين مقام آخر وجد المتكلم نفسه يستخدم نفس العبارة في مواقف مختلفة تحمل فيها معنى مغايرا عن المعنى الأصلي الذي وضعت له، وكل معنى يتوقف على ما يريد المتكلم أن يبلغه للمخاطب، أو أن يحقق به التواصل، ليتناسب المقال والمقام. فهي مبنية على دلالة خاصة يمنحها المقام للعبارة، ولا تدل ألفاظها و لا تراكيبها على ذلك فمضمونها مختلف عن ظاهرها. ليحدث هناك اتساع في الدلالة التي تحملها، لتشمل عدة معان أخرى. وهذا ما يدخل في إطار دراسة التطور الدلالي، وبالتحديد في قضية التضييق والتوسيع الدلالي، والذي يتأتى حسب إبراهيم أنيس من عاملي(59):

- **الاستعمال**: فالتطور الدلالي، هو نتيجة الاستعمال. فهناك دلالة قديمة، ثم استحدثت لها دلالة جديدة.

- **الحاجة**: إلى التطور الدلالي. بإحياء الدلالة القديمة، مما تدعو الحاجة إليه.

وهذا ما نلاحظه في الجمل الاعتراضية، التي تعتبر غريبة عن السياق الذي اعترضت فيه، في أغراضها المختلفة. إذ استخدمت في غير المعنى الذي وضعت له أصلا قصدا، وهذا نتيجة السياق الذي استعملت فيه. إذ ليس لها نفس المدلولات المرجعية التي كانت لها في الواقع قبل الدخول في النص، بل نراه يمتلك معاني أخرى يحددها السياق الداخلي المؤلف من الوحدات الدلالية المغايرة(60). لنستدعي بذلك:

- الأصل اللغوي.
- السياق المغاير الذي ترد فيه.

فمثلا، إذا بحثنا في المعاني الحرفية وأصل الوضع اللغوي في يا غوغاء ، سنجد بأن: (يا) حرف نداء و(غوغاء) هو الجراد حين يخف للطيران، وهو الصوت والجلبة(61) ثم استعير للسفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر، وهنا الراوي ينادي قبيلة بني خضران. ولكنها أيضا صالحة لأن تدخل في مقامات أخرى، و في معاني أخرى يحددها المكان ووضع استعمالها بين المتكلم والمخاطب. فالمعنى الأول مدلول له بصيغة العبارة مباشرة، في حين أن المعنى الثاني يتولد عن الأول وفقا لمقتضيات المقام والحاجة، ويكتسب في الاستعمال. يتضافر فيه المعنى الوظيفي والمعجمي إضافة إلى المقام في غاياته، كالتعبير أو الإفصاح عن الرضى وعدمه بالدعاء والتمني والترجي وغيرها.

« يقول لكم شيخكم الأغر الأبر... **يا همجُ يا رعاع...ويا غوغاءُ...** أمر النساء نُرْجئه إلى حين من الدهر...»(62) والهمج لغة جمع همجة: وهي ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمر وأعينها، ويقال لرذال الناس: همج هامج وهم الرعاع من الناس، الهمل الذي لا نظام له(63). والهمج أيضا هو الجوع: وبه سمي البعوض لأنه إذا جاع عاش وإذا شبع مات، قال الراجز:

قد هلكت جارتنا من الهمج،
وإن تجع تأكل عتودا أو بَذَح [64].

ولقد استخدمها الكاتب ليكنيَّ بها على أهل الروابي، ويشبههم بها ليخبرنا عن حالهم ويصفهم في بدائل دلالية تختصرهم، رغبة منه في تقريب صورتهم في الفكر أكثر وهذه الغاية هي التي تحدد معنى العبارات في المقام الذي استعملت فيه. ولعلّ العرب حين تحدثوا عن"المقام ومقتضى الحال"، كانوا يقصدون به ما أطلق عليه تمام حسان "غاية الأداء" [65] ليكون جزءا من المقام. فغاية الأداء لديه، تمثلها تراكيب معيارية "لكل مقام مقال"، قد تنتقل أو تتحول من غايات محددة إلى غايات أخرى، حسب مطالب الاستعمال ومناسبة المقام.

والتأويل الدلالي للجملة الاعتراضية، غير كاف بالاعتماد على المعلومات التي تقدمها الصيغة، بل يجب مراعاة ارتباطها بالمقام الذي استعملت فيه. فالجمل في صيغها الحرفية تتولد عنها معان أخرى، تنتج عن السياق وما يناسب المقام، بالاعتماد على الخلفية المعرفية المشتركة. فأي وحدة أسلوبية توجد في النص الأدبي سواء كان تعبيرا شعبيا أو لغة راقية أو لغة مهنية، لا بد أن يكون لها بالإضافة إلى مظهرها التعبيري مظهر دلالي يرتبط بنوعية التفكير الاجتماعي الذي تنتسب إليه[66].

إذ تحمل الجملة الاعتراضية دلالات وضعية متفق عليها، أي أنها جزء من الإطار البنيوي للخطاب الأدبي، تساعد على فهم الخطاب. والتناص والميتانص هي معلومات متضمنة ومضمرة ضرورية لتأويل ما يعقب من جمل، وهي جزء مما يقتضيه الخطاب. فهي تعبر بوجه صريح عن جمل سبق ذكرها واستعمالها، وقد تحمل معلومات أخرى ضمنية يتطلبها السياق التواصلي. فالتعليق والوصف والدعاء وقفات ضرورية، تستدعي الذاكرة وتمكن من الاقتراب أكثر بالقارئ، للنظر في الدلالات وربط النص السابق باللاحق والعكس. وعملية الفهم ملقاة على القارئ أو المتلقي، فزيادة عن المعنى الحرفي هناك تأويلات تعطى لها في سياق استعمالاتها، تكون مرتبطة بالسياق وعملية التواصل ليحمل الاعتراض وظيفة بالانتقال من:

- محور السياق: الدلالة الخاصة بالاعتراض في السياق الذي يرد فيه.

- محور الوظيفة: الدلالة الخاصة بالاعتراض كميتانص أو كتناص.

والوظائف التداولية التي تحملها مكونات الجملة الاعتراضية في الخطاب، تتخذ أهمية تحديد مواقعها من استجابتها للسياق. فما تتميز به الوظائف التداولية أنّها «مرتبطة بالمقام، أي أنّ تحديدها لا يمكن أن يتم إلاّ انطلاقا من الوضع التخابري بين المتكلم والمخاطب، في طبقة مقامية معينة»[67]. وهذه الوظائف تكون ممثلة تارة بمكون من مكونات الجملة كما لاحظناه في البنية الداخلية للاعتراض فالمحور يدل على محور التركيز في الجملة، أما البؤرة فهي المعلومة الجديدة المهمة فيها. وتارة بالجملة برمتها كما رأيناه في وظيفة الذيل والمنادى. ولكي تتحدد هذه العناصر أو المكونات، لا بد من اعتبار النسق الذي تأتي عليه الجملة بنية ودلالة، باعتبار محمولها، وباعتبار المقام التخاطبي المنجزة فيه، والنصوص التي تتحقق فيها، والتي تأخذ فيها وظيفة تخاطبية/ تداولية.

هوامش البحث:

1- أحمد المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص 17 و ما بعدها.

2- نفسه، الصفحة نفسها.

3- نفسه، ص11.

* - يتكفل ببناء المستويات الثلاث (التركيبية والدلالية والتداولية) ثلاثة أنساق من القواعد هي: الأساس وقواعد تكوين الوظائف وقواعد التعبير. أحمد المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص11. وآفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ط1، دار الهلال العربية، الرباط، 1993، ص06.

4- أبو حيان التوحيدي: الإشارات الالهية، تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1982، ص.128

5- أحمد المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص40.

6- الإشارات، ص128.

7- أحمد المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص.388

8- الإشارات، ص164.

9- الإشارات، ص 74.

10- م.ن، ص17.

11- م.ن، ص 38.

12- م.ن، ص121.

13- م.ن، ص128.

14- م.ن، ص174-175.

15- م.ن، ص193.

16- أحمد المتوكل: الوظائف التداوليّة في اللغة العربيّة، ص 42.

- والمكونات المسورة هي المكونات التي يكون مخصصها أحد الأسوار: كل، جميع، بعض. والنفي والحصر والاستفهام. وتتضمن ألفاظا خاصة نحو: شيء، أحد، قط.

17- الإشارات، ص112.

18- نفسه، ص 160.

19- م.ن، ص121.

20- م.ن، ص190.

21- م.ن، ص 353.

22- م.ن، ص48.

23- عبد الملك مرتاض: مرايا متشظية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص24.

24- نفسه، ص32.

25 - م.ن، ص175.

26- م.ن، ص 167.

27- م.ن، ص 161 – 162

28 - م.ن، ص 161 – 162.

29 - أحمد المتوكل: الوظائف التداوليّة في اللغة العربيّة، ص 164. بتصرف.

30- نفسه، ص119.

31- م.ن، ص 119.

32 - الإشارات، ص 388.

33- نفسه، ص82-83.

34- الرواية، ص158.

35- نفسه، ص179.

36- أحمد المتوكل: الوظائف التداوليّة في اللغة العربيّة، ص 174.

37- أبو هلال العسكري: الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981، ص 37.

38- أحمد المتوكّل: الوظائف التداوليّة في اللغة العربيّة، ص 149.

39- رولان بارت: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، تر: منذر عياشي، ط2، مركز الإنماء الحضاري، بيروت 3200، ص30.

40- سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2001، ص120.

41- نفسه، ص111.

42- الرواية، ص114- 115.

43- نفسه، ص113.

44- م.ن، ص117.

45- م.ن،ص 151- 152.

46- م.ن، ص152.

47- م.ن، ص 22.

48- م.ن، ص65.

49- م.ن، ص67.

50- م.ن، ص 142.

51- م.ن، ص64 -65.

52- م.ن، ص144.

53- م.ن، ص04.

54- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992، ص135.

55- تمام حسان: اللغة العربيّة معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979، ص 340.

56- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، ط 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص337.

57- الرواية، ص03.

58- سمير شريف أستيتيه: اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2005، ص289.

59- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ط3، مكتبة الأنجلومصرية، 1976، ص 138.

60- حميد لحميداني: القراءة وتوليد الدلالة تغيير عاداتنا في قراءة النصّ الأدبي، د. ط، المركز الثقافي العربي ص 116.

61- لسان العرب، ص 444.

62- الرواية، ص 25.

63- لسان العرب، ص392.

64- نفسه، ص392.

65- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 370.

66 - Mikhail Bakhtine : Esthétique et théorie du Roman, Gaillimard, 1978. p 88.

67 - أحمد المتوكل: الوظائف التداوليّة في اللغة العربيّة، ص116.